

## أغرب ما رأيت في حياتي

للدكتور زكي مبارك

—

أنا منهم بالعقل ومنهم بالجنون . فن وصفني بالعقل فهو متلف ، ومن وصفني بالجنون فهو مسرف . لأنني في حقيقة أمرى إنسان يعيش بشرة العواطف فوق ما يعيش بقوة العقل ، وهي حالة تجعل أمرى وسطاً بين العقل والجنون

والتوفيق الذى ظفرت به في حياتي العلمية مدينٌ لحياتي الوجدانية ؛ فقوة الوجدان هي التي حملتني على أن أستقتل في الدراسات الأدبية والفلسفية . وقد أتى يوم أعترف فيه بالأسباب الوجدانية التي جعلت عقلي يتفوق إلى أبعد حدود التفوق في مثل كتاب النثر الفني أو كتاب التصوف الإسلامى

وهذه الغرابة في تكوين عقلى وقلبي هي التي تحملني على الجرأة في تدوين هذا الحديث ، وهو حديث كنت أفتضح به أشنع افتضح لو نشرته قبل سنتين أو ثلاث ، يوم كان لي خصوم يصرحون أن تحاط حياتي بالأقوال والأراجيف

أما اليوم وقد قل خصومى بحيث لا يزيدون عن ألف أو ألفين ، فأنا أنشر هذا الحديث بلا تهيب ولا تخوف ، وليقل من شاء ما شاء

\*\*\*

كنت حين انتسبت إلى جامعة باريس أقضى أربعة أشهر من كل سنة في مدينة النور ، ثم أعود إلى وطني لأجمع من الصحافة والتدريس ما أستطيع به الرجوع إلى باريس من جديد . ودام ذلك بضع سنين ، ثم عرفت أنني لن أملك إلى غرضي إلا إذا قررت بطريقة حاسمة ألا أفارق باريس إلا في أحد حالين : النصر أو الموت

وكانت الإقامة الدائمة في باريس تبدو من المستحيلات ، لأن أبي رحمه الله لم يكن يقدر على إمدادى بكل ما أحتاج إليه . وكان ما ورثته عن أمي طيب الله ثراها لا يزيد عن بضعة قرايط . وكانت زوجتي أقفر منى ؛ ولم يكن لي في الحكومة المصرية عم ولا خال وفي تلك الظلمات استطعت أن أتفق مع الأستاذ عبد القادر حمزة

على مراسلة البلاغ من باريس بمرتب قدره خمسة عشر جنيهاً ، فتوكلت على الله وقررت الاعتكاف بالقبلة القديمة في السوربون ولكن مراسلة البلاغ من باريس لم تكن عملاً ينفع إلا في حال واحد : هو أن يشعر صاحب البلاغ بأنني أقدم إليه معصولاً أديباً ينقل القراء من حال إلى أحوال ، فقد كان الأستاذ عبد القادر حمزة اشتهر بين أصحاب الجرائد بأنه يحسن الاعتذار إلى من يريد الاستغناء عنهم من المحررين والمخبرين والمراسلين ؛ وكنت جربت اعتذاراته الرقيقة قبل ذلك حين كنت أحرر في البلاغ الأسبوعي سنة ١٩٢٦ . ولكن اعتذاراته في ذلك الوقت لم تكن تؤذي لأنني كنت مدرساً في الجامعة المصرية ، وكنت بفضل تلك الوظيفة من الياسر

\*\*\*

ماذا أصنع في مراسلة البلاغ من باريس ؟ كنت أستطيع أن أرسل إليه مقالات في الأدب العربي ، وأنا من أقطابه بلا جدال ، ولكن إرسال مقالات عن الأدب العربي من باريس كان ضرباً من السخف يقتصره من يرسل البلاغ من باريس . وهل يعيش الأديب في باريس ليحدث الناس عن ابن المقفع وابن العميد ؟ !

ماذا أصنع ؟ ماذا أصنع لأنجو من تسلّم خطاب رقيق من خطابات الاعتذار التي يجيدها صاحب البلاغ ؟ ماذا أصنع لأظفر بخمسة عشر جنيهاً أضيفها إلى البالغ الضئيلة التي أكسبها من الدروس الخصوصية التي أعطيها للطلبة الضعاف في اللغة الفرنسية من أعضاء البعثات ، والتفودات الفاتمة التي آخذها في مقابل المساعدة التي أؤديها لبعض المستشرقين الذين يهمهم أن ينقلوا النصوص العربية إلى اللغة الفرنسية ؟

ماذا أصنع ؟ ماذا أصنع ؟

لم يكن أمامي إلا مصلك واحد : هو الاندماج المطلق في باريس لأحدث قراء البلاغ بأحاديث منترعة من الحياة الواقعية في باريس وما هي إلا أسابيع حتى عرف صاحب البلاغ أنه لن يكتب إلي رجل مثلي خطاب اعتذار ، وحتى عرف قراء البلاغ أنني أحدثهم بما لم يألوه ، وأن البلاغ لن يستغنى أبداً عن صاحب « الحديث ذو شجون »

\*\*\*

إلى الفزع والرعب ، فقد تشاجرت فيها مع أحد الشبان الفجار  
في سنة ١٩٢٧ وكاد اسمي يقيد في سجلات البوليس لولا لطف الله .  
وكانت هذه التجربة القاسية كافيةً لأن أفتع بالضلال في حي  
مونبارناس

وفي قهوة الدوم وقعت المأساة أو الملهة التي أدونها في هذا  
الحديث :

دخلت ذات صباح فوجدت سيدة تطالع سفر الوجود بعيتين  
زرقاوين يندر أن يكون لهما شبيه أو مثيل  
وجلسْتُ بالقرب من تلك السيدة عسائي أنهب منها نظرة  
أو نظرتين أستعين بهما على إتمام بعض الفصول من كتاب  
( سحر العيون ) الذي أرجو أن يظهر بعد قليل  
وما هي إلا دقائق حتى تلاحظنا برفق وعطف  
ثم أشارت بأن أقترُب فاقتربت  
رباه ! متى تعود أياي ؟

وبعد أن دار كُأس الحديث نحو عشرين دقيقة عرفت أنها  
من البنايا

أعوذ بالله ؛ أعوذ بالله ، أعوذ بالله !!!  
أشك هذا الحسن يكون من نصيب الفَجْرة الأوباش ؟  
أتسكون هذه الحسنة الفتانة شبيهةً بالشمس ينعم بضوئها  
من يشاء ولو كان من الخفافيش ؟  
أتسكون هذه التحفة الفنية شبيهةً بكرائم الأنهار يشرب  
منها البهائم والدواب ؟

أتسكون هذه الميول السواحر من نصيب من يساعده القدر  
المخبول فيملأ جيبه بالندرام ولو كان من الأغبياء ؟  
أتسكون هذه الدمية شبيهةً بالحجر الأصم الذي تسجل عليه  
حوادث الأفاقين ؟

ليتني مت قبل أن أشهد ذلك النظر الأليم !  
ليتني مت قبل أن أعرف أن مثل ذلك الحسن يباع !  
ألك يارباه حكمة في إذلال هذه الروائع الفنية التي زينت  
بها الوجود ؟  
ارفع الحجاب مرة واحدة ، يارباه ، لأعرف أسرار السياسة  
العالية التي تسوس بها مخلوقاتك !

ولكن الانتصار في هذا الميدان له تكاليف  
كان لابد من الاتصال الدائم بأساتذة السوربون ومدرسة  
اللغات الشرقية لأظفر بما تساميت إليه من الألقاب العلمية  
وكان لابد من معاورة الحياة في باريس لأنجح في مراسلة البلاغ  
أما الأساتذة فالظفر بثقتهم سهل ، لأنني في الواقع من أصلح  
الناس لفهم ما أسمع من الخطب والمحاضرات ، ولأنني كنت بالفعل  
شاباً ناشجاً له في الأدب والفلسفة مذاهب وآراء

الصعوبة كل الصعوبة ، والمسر كل السر ، هو في اقتراع  
باريس لأصل إلى أوهم وحقائق أقيّد بها أذواق قراء البلاغ  
وكيف أصل إلى هذا النرض الجليل ؟  
هدنتي الفطرة إلى قضاء أوقات الفراغ في الملاهي والملاعب  
والمراقص والقهوات ، فكنت أقضي في هذه الزهرة الطريفة  
ساعات من النهار وساعات من الليل  
كنتُ شاباً ، ورحمة الله على شبابي ، الشباب الذي بددته  
في طلب الحب والمجد

كنت أذرع باريس بقدمي لأخلق لقلاتي جواً من الحقيقة  
لا من الخيال  
وأعاني على ما أسمو إليه لسان مرن في اللغة الفرنسية مرونة  
عجيبة تقدر على جذب من أحاور من أسراب الطلاب  
والفرنسيون يغفرون للرجل جميع الذنوب إذا أمدته العناية  
الإلهية بلسان فصيح

وكان لي في باريس ثلاث قهوات : قهوة صغيرة جداً  
في بوليش بجوار ( قهوة الرحيل ) التي كان يجلس فيها الدكتور  
طه حين يوم كان طالباً في جامعة باريس  
وكانت هذه القهوة الصغيرة مخصصة للمواعيد الغرامية ،  
والتأملات الفلسفية ، فكيف صارت اليوم ؟ ليتني أعرف !  
أما القهوتان الأخريان فهما الروتوند والدوم في حي مونبارناس

\*\*\*

كيف كنتُ أصطحب وأغتبق بهاتين القهوتين ؟  
كان مفهوماً عندي أن لا سبيل إلى معاورة الحياة  
إلا في مونبارناس  
وإنما كان ذلك لأنني كنتُ أتهيب موعارتي تهيباً يصل

ومجعتُ على تلك السيدة الجميلة بمنف فقالت :

اسمع أيها السيد ، ليست الفواية من همى ولا من منأى .  
أنا امرأة شقية خدعها شاب مثلك باسم الحب ، وكانت ثمرة الحب  
طفلا هو اليوم تلميذ بمدرسة ( . . . ) وقد هجرنى الحبيبُ والدُ  
الطفل وتركنى وحدى أرييه وأرعاه ، فأنا أتسول باسم الحب لأنفق  
على ذلك الطفل المسكين ، إلى أن يظهر أبوه ، إلى أن يظهر ذلك  
الوغد الذى هجر معشوقته وطفله منذ سبع سنين . فإن كنت  
تدعى الرجولة الصحيحة فتقدم لحمايتى ورعاية طفلى ، وسترى  
كيف أجزيك عطفاً بطف وإخلاصاً بإخلاص

وما كنت أسمع هذا القول حتى دارت الأرض تحت قدمى  
ومن أين أنفق على هذه السيدة وعلى طفلها وليس  
لى من جريدة البلاغ ومن الدروس الخصوصية إلا مبلغ ضئيل  
من المال لا يزيد على ثلاثة آلاف من الفرنكات ، والحياة قاسية  
أشد القسوة على الغرباء فى باريس ؟

ثم نظرت فرأيت هذه المرأة تمرض مشروعاً نبيلاً قد يرفع  
روحى بعد إسفاف . فصوبت بصرى إليها وقلت : وكيف أضمن  
أن تتوبى عن حياة الرجس ؟

فقلت فى استحياء : إن لغرفتى مفتاحين !

قلت : وما معنى ذلك ؟

فقلت : لك مفتاح ولى مفتاح ، نغذى لنفسك وراقبى كيف  
تشاء ، فإن استطعت أن تشهد على ما يرب بعد اليوم فاقتلى .  
والمهم أيها السيد أن ينجو طفلى من الجهل ومن الجوع  
وفى تلك اللحظة تذكرت عبد المجيد فقلبتى الدمع  
تذكرت أنى تركت فى مصر الجديدة أطفالاً منهم عبد المجيد  
الذى كان يزعم كيانى حين يقول ( بابا )

— وما اسم ابنك ياسيدة ؟

— اسمه موريس

— هلم بنا إلى التسليم على موريس !

\*\*\*

قد أنسى كل شئ ، ولكنى لن أنسى طلمة موريس  
قد ينسنى الموت جميع ما حفظت من اللغة الفرنسية ، ولكنى

سأذكر فى قبرى عبارة باقية فى اللغة الفرنسية حين طلع موريس  
فقلت له أمه : Embrasse papa

وتوهم الطفل أنى أبوه فقبلنى بحرارة والتمسوع فى عينيه

— Papa !

— Mon petit !

واستأذنا مدير المدرسة فسلم إلينا الطفل ليقضى معنا ليلة فى  
مباهج باريس

وسألنى الطفل : أين كنت ؟ فأخبرته أنى توجهت إلى الشرق  
لزيارة القاهرة وبغداد وبيروت ، واخترعت له أقاصيص تعجبه  
وتلهيه ، ولم يفتنى أن أحدثه عن أخبار الجن والعفاريت .

وفى تلك الليلة هجر الطفل صدر أمه وسكن إلى صدرى  
لينام نوم السعداء

وفى تلك الليلة شعرت أن روحى ارتفع إلى أجواز السماء

كان موريس ورث عن أمه الفرنسية صفرة الشعر وزرقة  
العينين ، وكان ورث عن أبيه الهولندى شمائل من السجاجة  
واللطف ، وكان فى جلته وتفصيله تحفة من تحف الوجود .  
وقد وجد من عطفى وحنانى كل ما يتمناه ويشتهي ، فأنطلق بحدث  
أترابه فى المدرسة بالنمى الذى يلقاه فى يوم الأحد والخميس

وفرحت مخرجيت بما صارت إليه من راحة البال وصفاء  
النفس بعد الهيام الأثيم بأحياء باريس

ومضت تقترح ما تشاء من المفامرات فملتنى الرقص  
وطوفت بى على المكشونات من صناديق الليل

وبفضل مخرجيت عرفت من خبايا باريس ما لا يعرف الشياطين  
ولم نكتف بذلك ، بل نقلتلى إلى رؤوآن والمهاجر وأطلمتنى  
على المستور من شواطئ المانش ، وأقامت مئى فى الضواحي البائية  
أسابيع

والله وحده يعلم كيف عاشرت تلك الحساء ، فلو أنى قلت  
إنى كنت فى حها من الأطهار لما صدقتى مخلوق ، لأن سمعتى  
تعرضت لأخطار كثيرة بسبب الهالك على أخبار الملاح ، ولكن  
الواقع أنى كنت فى صحبة تلك السيدة رجلاً نبيلاً . وأجمل ما نلت  
منها لم يرد عن قُبلة شهية طبعتها على جبينى حين أخبرتها أنى

من أهل ولى أبناء . وقد قهرتني على قبول هدية من المطر و«الكريم»  
لأرسلها إلى ابنتي أو زوجتي ، وقد قبلت الهدية ثم ألقيتها خفية  
في نهر السين

\*\*\*

كانت مرجريت متعبة إلى أبعد الحدود  
قالت ذات يوم : أنت يا دكتور معرض للسمنة لكثرة  
ما تشرب من البيرة

فقلت : هذا حق !

فقلت : مارأيك في سياحة على الأقدام إلى ليون ؟

فقلت : وفي كم يوماً نصل على الأقدام إلى ليون ؟

فقلت : في نحو أسبوع

فحملنا أثقالنا وأجهزنا نحو ليون ماشيين

وبعد يوم واحد تعبنا ، فحملتها على الرجوع بالقطار إلى باريس  
ليتني أطعت مرجريت وذهبت ماشياً إلى ليون لأعرف  
كيف يعيش الناس في الأقاليم الفرنسية ، ولأجدد الأتس  
بصحبة مرجريت يوم هنا على وجوهنا في الحقول النورمندية !

كانت مرجريت ضجرت من حياة الفتون

وكنت ضجرت من حياة الفتون

وكنا نشهى أن نعرف معنى التصوف في الحب ، وكيف

لا تصوف في الحب وقلوبنا معمورة بحب الطفل العزيز موريس ؟

\*\*\*

وبعد أن دام هذا النعيم النبيل خمسة عشر شهراً وصلت  
إلى ما أريد في امتحانات مدرسة اللغات الشرقية وامتحانات  
السوربون ، وصممت على الرجوع إلى أهلي وأبنائي ، ولم يكن  
بدن من توديع مرجريت وموريس  
وأى توديع ؟ !

كان من الواجب أن أردّ المفتاح إلى مرجريت ، فرفضت  
والدمع في عينيها الزرقاوين ، وقالت : احفظ هذا المفتاح فقد تصل  
على حين غفلة إلى باريس

وكانت مرجريت لا تزال معرضة للفقر والبؤس فوعدها  
بإرسال سبعمائة فرنك في كل شهر لتستطيع الإنفاق على نفسها  
وعلى ابنها الغالي ، وأنا أفي إذا وعدت

\*\*\*

كانت الدنيا في ذلك العهد لا تخيفني ، وهل يخاف من يرجع  
منزواً بأعظم الألقاب من باريس ؟

ولكنني لم أكّد أصل إلى مصر حتى عطلت جريدة البلاغ

فأرسلت إلى مرجريت أستغفها مما وعدت ، فكتبت تصفح

عني وتساءل الله أن يفتح لي أبواب الرزق

وما هي إلا مدة قصيرة حتى استجاب الله لدعوة مرجريت

فكنت آخذ من الجامعة الأمريكية ثمانية وعشرين جنياً ، ومن

الليسيه اثنين وعشرين جنياً ، ومن البلاغ خمسة عشر جنياً بفض

النظر عما كنت آخذه من المكتبة التجارية ومن مجلة الهلال

ورأيت أن أزيد مرتب مرجريت فكنت أرسل إليها في كل

شهر ألف فرنك

وعرف موريس فضل «أبيه» فكان يرسل إليّ في كل

أسبوع خطابين

حرسك الله يا موريس وكتب لك التوفيق !

\*\*\*

وفي سنة ١٩٣٣ ذهبت إلى باريس لأحضر مؤتمر (اليسيون

لايك) نائباً عن أساتذة اللغة العربية بمعهد الليسيه . ذهبت ومعي

المفتاح لأزور مرجريت ولكنني استكبرت عن زيارة مرجريت ،

وهل يفكر الأساتذة الكبار في العطف على امرأة نكسها القادير ؟

ولما رجعت من المؤتمر تقصتُ مرتب مرجريت من ألف

فرنك إلى سبعمائة فرنك ، واعتذرت بأن مواردني نقصت

وأني لم أعد أملك غير التدريس بالليسيه والتحرر في البلاغ

فكتبتُ مرجريت تقول إنها ترضى مني بأن أعترف أنها

استطاعت مرة واحدة أن تدخل النور إلى حياتي

أعترف يا مرجريت بأنك بددت الظلمات في حياتي

طال العهد على لقاء مرجريت ، وطال العهد على لقاء موريس

وحلني لؤم الطبع على التخلص من مرجريت وموريس ، وهل

كانت مرجريت زوجتي ؟ وهل كان موريس ابني ؟ وهل كنتُ

أول شاب أطاع النوايا في باريس ؟ يجب أن أقطع المرتب الذي

خصصته لمرجريت وموريس ، ولكن كيف ؟

لذلك تأرخ منزله في الأسبوع المقبل

ذلك مبارك

« مصر الجديدة »